الصّورة الفنّية عند عمر راسم
من الرّمزية الواقعية إلى التّجريد المطلق
(تأمّلات واستنباطات حول بعض إبداعاته الخاصّة)

شرقي الرزقي
قسم الآثار-
جامعة تلمسان

مقدمة

قد لا يختلف اثنان حول ما كلّلت به مسيرة النّابغة عمر راسم الطّويلة نسبيا من العطاء الفكري، والفنّي الزّاخر، ومع ذلك يبقى تراث الرّجل مغمورا، وبحاجة ماسة إلى دراسة ضافية بوصفه مثقّف عصامي كبير له كتابات صحفية في ميادين شتّى*، ما تزال متفرّقة في صحف وطنية ودولية متعدّدة كالجزائر**،

---

* إلى جانب كتاباته الصّحفية المتنوّعة، خلّف عمر راسم من ورائه رسالة غير منشورة حول تراجم أعلام مدينة الجزائر في أيامه، كحمدان خوجه، ومحمد مصطفى بن الخوجة، المعروف بمصطفى الكمال، المولود عام (1281هـ / 1865م)، وعبد الحليم بن سماية، المولود عام (1282هـ / 1866م)، وقد اطّلع الباحث محمّد عليّ دبوز على نسخة منها بخط المؤلّف نفسه في مدينة قسنطينة عام (1965)م بمكتبة الشّيخ النّعيمي على الرّاحج، وقام بنسخها قراءة في شريط صوتي، وظّفه لاحقا في ترجمة بعض أعلام الإصلاح، ورواد النّهضة الجزائرية المعاصرة، أكثر تفاصيل ينظر: محمد عليّ دبّوز، **نهضة الجزائر**، الجزء الأوّل؛ أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثّقافي** (1830 – 1954)م، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطّبعة الثّانية، 2005، الجزء الثّالث، ص 72، 83 – 88، 93 - 96؛ الجزء الخامس، ص 288 - 289؛ الجزء السّابع، ص 255، 441.

** الجرائد التّي مارس فيها عمر راسم عمله الفنّي بداخل الوطن في هذا المقام هي: جريدة "**الجزائر**" النّصف شهرية، التي ظهرت عام (1908)م، ولم ستمرّ صدورها المنتظم سوى لوقت قصير جدّا، حيث لم يكتب لها تخطي عتبة ثلاثة، أو أربعة أعداد فقط، وجريدة "**ذو الفقار**" الأسبوعية، التّي ظهرت بين (1913 - 1914)م، والتّي لم تتخطّ هي

وتونس***، ولربّما تركيا أيضا****؛ وأعمالا فنّية كثيرة أخرى في ميدان الزّخرفة الخطّية، وفنّ المنمنمات، التّي لا نعرف منها في وقتنا الرّاهن إلاّ النّزر القليل مع الأسف الشّديد.

تلك الأعمال الإبداعية، التّي بقيت مستمرّة من غير انقطاع منذ نعومة أظافر هذا الفنّان إلى مرحلة متأخّرة من حياته، حيث هي اليوم في انتظار مَنْ يجمعها، ويدرسها، ويحققها، وهو الأمر الذي لا

الأخرى بدورها عتبة الأعداد التّجريبية الأربعة (اللّوحة: 01)، وكلاهما من تأسيسه الخاص، إضافة إلى جريدة ثالثة من إنشاء المحتلّ الفرنسي على الرّغم من نطقها باللّغة العربية، ألا وهي جريدة "**المبشّر**"، حيث عمل بها كخطاط محترف لمدّة قصيرة، قبل أن توجّه له تهمة خطيرة جدا، ألا وهي تهمة التّآمر على أمن الدّولة الفرنسية الدّاخلي، والتّجسس لمصالح العدوّ (الدّولة العثمانية)، كما ستأتي تفاصيل ذلك لاحقا، أكثر تفاصيل ينظر: أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، الجزء الخامس، ص 247، 285 — 287؛ MEDJDOUB (Ali), "Omar Racim miniaturiste, calligraphe et homme politique", In: **Tassili Magazine**, N° 55, (Septembre – Octobre), 2008, pp 37,39.

*** من بين المجلاّت والجرائد التّونسية التّي نشر فيها عمر راسم مقالاته هناك: مجلّة "**الباحث**"، التّي نشر بها مقالا موسوما بـ: "الموسيقى الأندلسية بالجزائر"، وذلك في عددها الصّادر يوم 13 أفريل 1945م؛ ومن بين الجرائد هناك: جريدة "**التّقدّم**" بداية من عام (1907)، وجريدة "**المرشد**"، وجريدة "**مرشد الأمة**" التّي نشر بها عدّة مقالات منها مقال: "اليقظة الجزائرية"، وهي ردّ مباشر على التّعتيم الإرادي الذي كانت تصدره جريدة "المبشر" حول الحركة الفكرية بالجزائر آنذاك؛ وجريدة "**الحاضرة**" التّي استمرّ صدورها على مدار أكثر من عقدين كاملين من الزّمن (1888 — 1911)م، والتّي أولت للقضية الجزائرية وقتها مجالا خاصا، أكثر تفاصيل ينظر: أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، الجزء الثّاني، ص 443، هامش 1، الجزء 05، ص 285، 288 — 289، 492، 607.

**** كثيرا ما كانت مقالات عمر راسم تُنشر بجانب مقالات زميله الصّحفي النّاشط "عمر بن قدور"، سواء بداخل الوطن أو خارجه، ومن ثم لا يستبعد نشر هذا الأخير بعض المقالات في الصّحف التّركية، مثل ما نشر عمر بن قدور حول قضية التّجنيد الإجباري في جريدة "**الحضارة**" التّي كانت تصدر باسطنبول، والتّي كانت تعتني بالشّؤون الجزائرية كثيرا، أكثر تفاصيل ينظر: أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، الجزء 05، ص 607.

يستوعبه بحث قصير بهذا الحجم، والمُخصّص لمعالجة نقطة واحدة، ألا وهي حركة "الصّورة الفنّية" في إبداعات هذا الفنّان بين توظيفه للفنّ كأداة إصلاح للقيم الاجتماعية والثّقافية البالية في المجتمع الجزائري من جهة، ووسيلة كفاح ونضال فعّالة ضدّ المحتلّ الفرنسي من جهة ثانية؛ والفنّ لذاته من جهة ثالثة، حيث كشف عمر راسم بهذا الخصوص على موهبة فذّة، وعبقرية متفجّرة، وقدرات خلاّقة، أهلّته عن جدارة واستحقاق تبوأ صدارة ترتيب الفنانين الجزائريين المعاصرين في مجال الخطّ والمنمنمات على وجه الدّقة والتّحديد.

1). تلقّي عمر أبجديات فنّ التّميق وأثر المحيط في صقل مواهبه الخاصّة :

نشأ عمر راسم* وترعرع في أحضان عائلة فنّية

---

* هو عمر بن عليّ بن سعيد بن محمّد، وبوراس باية. وُلد في عام (1302) هجري، الموافق لعام (1883 – 1884) ميلادي بأحد منازل شارع "غيلبان" (GUILLEPIN) من حيّ القصبة العتيق بمدينة الجزائر العاصمة. حيث نشأ، وترعرع بين أحضان عائلة متوسطة العدد، تتكون من الأب (عليّ)، والأمّ (باية)، إضافة إلى أربع بنات هنّ: عتيقة، وصليحة، ومليكة، وحنيفة، والدة الرّسام الجزائري عليّ خوجه، الذي وافته المنية مؤخّرا؛ وطفلين فقط على ما يبدو هما: عمر الذي التحق بالرّفيق الأعلى يوم 13 فيفري (1959م / 1375هـ)، وأخيه محمّد المغتال برفقة زوجته في بيتهما بمدينة الجزائر عام (1975)م في ظروف جدّ غامضة. أكثر تفاصيل حول ترجمة الرّجل ينظر على وجه الخصوص: محمّد بن العابد الجلالي، **تقويم الأخلاق**، نشر المطبعة الجزائرية الإسلامية، قسنطينة، (1345هـ / 1927م)؛ أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، الجزء الخامس، ص 282 – 283، 297 – 298؛ عبد القادر جغلول، "تكوين المثقفين"، في: **مظاهر الثّقافة الجزائرية**، المركز الثّقافي الجزائري، باريس، 1986؛ عبد الله الرّكيبي، "عمر راسم"، في: **المجاهد الثّقافي**؛ محمد ناصر، = ==**حياة عمر راسم، وعمر بن قدور**؛ أحمد توفيق المدني، **حياة كفاح**، الجزء الثّاني؛ MEDJDOUB, Op.cit, ؛MARCAIS (G), **Documents Algériens**, 1946. أضف إلى ذلك القصيدة الشّعرية التّي مدحه بها الشّاعر الكبير محمد العيد آل الخليفة برفقة مدح شاعر الثّورة الجزائرية "مفدي زكريا".

عريقة❖❖، تمكّنت من إنجاب حرفيّين بارعين، وفنّانين مبتكرين، كما يمكن أن يُستنبط من حرفة الجدّ المباشر لعمر (سعيد بن محمد راسم) الذي كان نقّاشا على الخشب ومزخرفا على الجلود[1]، فيما كان والد عمر (عليّ)، المتوفّى عام (1917)م بمدينة الجزائر دائما، مزخرفا بارعا على الخشب هو الآخر إلى جانب إتقانه فنّ التزويق على الزّجاج، وعمّه خطّاطا حاذقا، الذي يعود له فضل تلقين أبجديات فنّ الخطّ العربي لابن أخيه عمر[2]، الذي وجد من جهته

❖❖ اختلف الباحثون المعاصرون، المترجمون لبعض أفراد هذه الأسرة الفنّية حول أصولها القديمة، فمنهم مَنْ اعتبرها أسرة مشرقية الأصل، حلّت بمدينة بجاية السّاحلية في زمن غير معروف، قبل أن تلتحق بمدينة الجزائر في وقت لاحق، وتستقرّ هناك بشكل دائم، شأن الباحث والرّسام الفرنسي "جورج مارسه" (Marçais Georges)؛ ومنهم من اعتبرها أسرة تركية الأصل باعتبار أنّ عائلة "راسم"، هي عائلة فنّية كبيرة لها تراجم عديدة في المجال الفنّي لدى الأتراك، وهو مذهب الباحث والخطّاط الجزائري "محمّد شّريفي"؛ ومنهم من جعلها أسرة أمازيغية، سليلة الأسرة الحمّادية الصّنهاجية التّي حكمت بلاد المغرب الأوسط (الجزائر حاليا) خلال القرنين (05 – 06هـ / 11 – 12م)، والتّي اتخذت من مدينة بجاية عاصمة لها خلال النّصف الثّاني من القرن (05هـ / 11م)، والنّصف الأوّل من القرن الموالي (06هـ / 12م) بدليل التّوقيع الصّحفي لعمر راسم نفسه، الذي كان يمضي كتاباته، ورسوماته الصّحفية باسم "ابن المنصور الصّنهاجي" –إشارة منه إلى الأمير الحمادي المنصور بن النّاصر بن علناس، مؤسّس مدينة بجاية على عهد الحماديين في عام (1067)م، أو لحفيده يحيى بن العزيز آخر أمراء هذه الأسرة، الذي كان يُلقّب بذات الكنية (أبو المنصور)- كما أقرّ بذلك العلاّمة أبو القاسم سعد الله في بادئ الأمر، قبل أن يتراجع عليه في موطن آخر، ويعدّ هذه الأسرة متعدّدة المشارب، مثلها في ذلك مثل أسرة العلاّمة عبد الرّحمن بن خلدون تماما، وكذا نعت عمر باسم "أبو المنصور" على خلاف ما هو ثابت بشكل لا يدع أدنى شكّ في اللّوحة (01) "ابن المنصور".

1 MEDJDOUB, Op.cit, p 37, colonne 1.

2 Ibid, p 37, colonne 1.

ورشة العائلة في مجال الصّناعات اليدوية قد قطعت شوطا كبيرا في طريق النّجاح والتّألّق، كما يؤكّد ذلك استفادة مختلف منتجاتها الحرفية من علامة الجودة الصّناعية الخاصّة، بداية من عام (1880)م، أي قُبيل مولد عمر راسم بنحو ثلاث سنوات تقريبا[1].

ذلك الرّصيد الحرفي المتميّز الذي أثْراه عمر راسم نفسه بفنّ جديد، ألا وهو فنّ النّسيج، حيث التحق بمدرسة للتّكوين في هذا المجال في مرحلة مبكّرة من عمره، قبل أن ينشئ ورشته الخاصّة في وقت لاحق، والتّي سرعان ما تحوّلت إلى نادٍ ثقافي راقٍ، تلتقي فيه نخبة مثقّفة من الفنانين وغيرهم من الأعلام لتبادل الأفكار، ووجهات النّظر بخصوص المواضيع ذات الاهتمام المشترك آنذاك[2].

منطلق تثقيف ذاته عصاميا باللّغتين : العربية التّي أخذت بيده إلى منابع التّراث العربي الإسلامي العريق للاطلاع على ثروته الهائلة، وتذوّق حلاوة علومه، وآدابه، والاستمتاع ببطولات تاريخه المشرّف؛ والفرنسية التّي أحالته على عالم الصّحافة والسّياسة، حيث عرف معنى الإمبريالية ومخططاتها الجهنمية، المستهدفة للعالم العربي الإسلامي، والاشتراكية بوصفها طرح فكري جديد في ما وراء البحر، يناهض التّعسف، ويطالب بالعدالة الاجتماعية بين أفراد المجتمع الواحد من غير تمييز على خلاف ما تفعل فرنسا في الجزائر؛ والصّهيونية وخطرها الدّاهم لفلسطين، وحقيقة الصّراع القائم بين

---

1 Ibid, p37 colonne 2.

2 Ibid, p37 colonne 2.

القوى الاستعمارية والخلافة العثمانية المتداعية للانهيار في مقابل انحياز بعض أشباه المثقفين للقوى الاستعمارية والتّهليل لها من غير بعد نظر، وشدّة وقع كلّ ذلك على المصير الحضاري، والسّياسي للعالم العربي الإسلامي مستقبلا.

ومن ثم تكون المعضلة الجزائرية في نظره، معضلة جزئية من معضلة أكبر، قد ألمّ خطبها بالعالم العربي الإسلامي أجمع، كما يمكن أن يستنبط من ميوله الفكري للتّيار الدّيني الإصلاحي منذ مرحلة مبكّرة من شبابه، واستمراره على ذات النّهج إلى سنّ متأخرّة من حياته، كما يمكن أن يُستنبط بوضح في إبداعاته الفنية، المستوحاة من الفنّ الإسلامي الأصيل؛ وساعة استقراء دوافع رحلاته إلى بعض الدّول العربية الشّقيقة (المغرب الأقصى، وتونس، ومصر)، وطبيعة الاتصالات التّي أجراها مع أقرانه هناك كطلعت رفاعي، ومحمد فريد، وغيرهما، والتّي كانت سببا في سجنه يوم 13 أوت (1915)م، والحكم عليه بالإعدام في بادئ الأمر قبل أن يخفف الحكم عليه في مرحلة أولى بالنّفي إلى "كاليدونيا"، ثمّ الحكم عليه بالمؤبّد مع الأشغال الشّاقة في سجن "سركاجي" الحالي، قبل الإفراج عنه في نهاية المطاف عام (1921)م بفضل ضغوطات بعض المنظمات الحقوقية من خارج الجزائر❖.

❖ يرجع تفاصيل ذلك إلى تاريخ عثور المخابرات البريطانية على ظرف بريدي من عمر راسم كان موجه لجريدة "الشّعب" المصرية، يتضمّن رسالة تدعو المسلمين إلى ضرورة الالتفاف حول السّلطان العثماني بوصفه خليفة المسلمين، والتّنبيه

أضف إلى ذلك، فحصّ كتاباته الصّحفية، ومجالات اهتماماتها الفكرية، وكذا ميولاته الإيديولوجية الصّريحة للجامعة الإسلامية، التّي كان يروّج لأفكارها زعماء النّهضة العربية الحديثة، وفي مقدمتهم فضيلة الشّيخ "محمد عبده" الذي كان عمر راسم من بين الذين حضروا دروسه بالجزائر عام (1903)م، والاقتناع بمنهجه الدّعوي، وفكره النّضالي[1].

وبذلك يكون حلّ معضلة الجزائر لدى هذا المثقف العصامي بتأكّيد وترسيخ معالم الهوية الوطنية التّي عمل المحتلّ الفرنسي على طمس آثارها ونسف وجودها من الأساس بوصفها النّواة المرجعية لبناء فكرة الاستقلال، ومحاربة الجهل الذي يتخبط في مستنقعه غالبية الجزائريين، ومناهضة مروجّي الأفكار القاتلة من الاندماجيين المتمسكين بقشور الحضارة الغربية البرّاقة وأحلافهم من أصحاب المصالح الضّيقة، والحثّ على العودة إلى الأصول الحضارية والثّقافية الوطنية الأصيلة، والعمل على ترسيخ، وتوطيد مبادئها السّامية في نفوس المستضعفين المنكسرة من عامة النّاس، حيث مكمن العزّة

على الخطب الدّاهم، الذي يتربص بمصير الأمّة العربية والإسلامية جمعاء من خلال "سياسة فرّق تسد"، وتحالف الاستعمار البريطاني مع نظيره الفرنسي في هذه المسألة؛ تلك الرّسالة التّي كانت مرفقة بلائحة عريضة من توقيعات الجزائريّين المخلصين؛ وبعد تبادل المعلومات بين المخابرات البريطانية ونظيرتها الفرنسية، تمّ توقيف الرّجل، واعتقاله على أساس المحرّر الشّخصي لتلك الرّسالة الخطيرة على أمن فرنسا الدّاخلي حسب زعم إدارة المحتلّ مع اتهامه بالتّجسس لصالح العدوّ (الدّولة العثمانية).

1 أبو القاسم، مرجع سابق، الجزء 05، ص 498، 590 — 592.

والكرامة الحقيقية للمجتمع الجزائري؛ ومن ثمّ كان قلمه السّيّال، وريشته السّخية بمثابة فلقتا سيف العدل والحقّ في الإسلام، المعروف بسيف سيدنا عليّ (كرّم الله وجهه) لدى العامّة، أو "ذو الفقار" كما هو معروف في موضعه من مصادر التّاريخ الإسلامي، الذي تبنّاه في أعماله الصّحفية (اللّوحة : 01)، كرمز كفاح ونضال، سلّطهما على خصوم الجزائر وشعبها في الدّاخل والخارج بلا هوادة.

وفي ذات السّياق، شكّلت مدينة الجزائر، مسقط رأسه المصدر المادّي لتجسيد روح الوطن ككل (القطر الجزائري) في أعماله الفنّية، كما كانت منبعًا لا ينضب لاستلهام مواضيع الهوية الثّقافية العريقة من عمارة، وعادات، وتقاليد حيّة من جهة ثانية إلى جانب طرز الفنّ العربي الإسلامي الأصيل، الذي تفرّد عن بقية فنون الأمم والشّعوب بالزّخرفة الخطّية، وفنّ الرّقش العربي المحوّر عن الطّبيعة، والذي تلقى تعاليمه الأولية على يد عمّه، ولمس ذوقه الرّائق عن قرب فيما كان ينتجه أفراد عائلته، كلّ حسب تخصصه من تحف فنّية بديعة، قبل أن يصقل تجربته الخاصّة بالمطالعة الدّائمة لمصادر التّراث العربي الإسلامي، ويعاين فخامتها وسحرها مشاهدة بأم عينيه خلال رحلاته المتكررة إلى كلّ من مصر، وتونس، والمغرب الأقصى.

2). وظائف عمر راسم الفنّية

تقلّب عمر راسم بين عدّة وظائف فنّية❖، حيث بدأها عام (1901)م، وهو في السنّ السّابعة عشر (17) من عمره بالاشتغال في إحدى مطابع مدينة الجزائر[1]، تلك المهنة التّي قوّضت في نفسه هواية العمل الصّحفي، وممارسة الكتابة بشكل عام، وهي تجربة مبكّرة ساعدته كثيرا في إصدار جريدتيْه (الجزائر، وذو الفقار) لاحقا بإمكانيات خاصّة جدّ محدودة؛ وفي عام (1928)م سافر إلى عاصمة المغرب الأقصى، مدينة الرّباط بغرض ممارسة حرفة الرّسم بمعهد الفنون الأهلية، إلاّ أنّ لوعة فراق الأحباب والوطن، سرعان ما دفعت به إلى العودة سريعا لأرض الوطن بعد مضيّ أشهر قلائل على ذلك[2].

وبالمقابل سرعان ما لاح من بعيد طيف اهتمامه بفنّ آخر، ألا وهو فنّ الموسيقى الأندلسية، بوصفها جزءً لا يتجزأ من تراث الموسيقى الشّعبية الجزائرية، حيث بدأها بالتّردّد على فرقة الإخوة "فخارجي" في بادئ الأمر، ثمّ مجالسة دحمان بن عشور[3]، وانتهاءً بالتّأليف فيها،

❖ على هامش وظيفة الصّحافة، وبقية الوظائف الفنّية التّي نحن بصدد ذكرها، مارس عمر راسم وظائف دينية أخرى بفضل حفظه القرآن الكريم، وهو لم يتجاوز السّبع سنين على حدّ ما يُروى، حيث شغل حزّابا في أحد مساجد القصبة (جامع صفر، أو الجامع الجديد على حسب تضارب الرّوايات فيما بينها)، والدّعوة والإصلاح عن طريق الوعظ والإرشاد، وترتيل القرآن الكريم بإذاعة العاصمة شهر رمضان المعظّم، والآذان بها أوقات الصّلاة، بداية من عام (1951)م.

1 MEDJDOUB (Ali), Op.cit, p 39, colonne 1.

2 Ibid, p 39, colonne 1.

3 Ibid, p 39, colonne 1.

ومتابعة نشاطاتها العلمية بداخل الوطن وخارجه، كما يمكن أن يستنبط من حضوره مؤتمر القاهرة الدّولي حول الموسيقى العربية، المنعقد في غضون عام (1932)م[1]، وتعدّد مقالاته العلمية بشأنها على أعمدة الصّحافة، وصفحات بعض المنشورات التّونسية.

وفي عام (1933)م، تمّ تعيّينه مدرّسا بمدرسة الفنون الأهلية بالجزائر، قبل أن يلتحق في العام الموالي (1934)م بأخيه الأصغر "محمد" للتّعليم إلى جانبه كأستاذ بمدرسة الفنون الجميلة (المدرسة العليا للفنون الجميلة حاليا)، حيث تخرّج على يديه كلّ من ابن أخته الفنّان عليّ خوجه، وإسياخم، وغانم، ومحمد تمام، الذين نال بينهم احتراما وتبجيلا كبيرين بفضل كفاءته المهنية، وعرفانهم بأثره العميق في صقل مواهبهم الفنّية[2].

ثمّ التحق بأعضاء الجمعية الثّقافية، المعروفة باسم " جمعية سيدي المداني"، التّي كانت تضم من بين أعضائها مثقفين جزائريين باللّغة العربية، كالعلاّمة عبد الرّحمن الجلالي، ومثقفين جزائريين باللّغة الفرنسية كالمرحوم مالك حدّاد، وفرنسيين مناهضين للاستدمار، مثل الأديب الجزائري بالمولد "ألبار، كامي" (*ALBERT CAMUS*)، وذلك عام (1944)م، حيث كُلّف على هامش ذلك بتنشيط حصّة إذاعية أسبوعية حول التّراث الثّقافي والحضاري المحلّي[3].

---

1 أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، الجزء 05، ص 432 — 433؛ Ibid, p39.

2 MEDJDOUB (Ali), Op.cit, p 39, colonne 1.

3 MEDJDOUB (Ali), Op.cit, p 39, colonne 3.

3). مجالات ابتكاراه الفنّي*

يذكر الرّسام الفرنسي "جورج مارسيه" (*MARCAIS GEORGES*) مشيدا بإنجازات الرّجل في مقال له حول الأخوين "محمد وعمر راسم"[1]، بأنّ هذا الأخير قد خلّد اسمه الفنّي بحروف من ذهب في مجال الزّخرفة التّجريدية، المحوّرة عن الطّبيعة، وفنّ الخطّ العربي الجميل على وجه الخصوص، وهو ما نلمسه بوضوح في أربع مجالات أساسية :

أ). تنميق أغلفة الكتب والموسوعات وصفحات الجرائد

سبقت الإشارة من قبل إلى أنّ الرّجل قد اشتغل بجريدة "المبشّر" لبرهة من الوقت كفنّان وخطّاط محترف[2]، وبصرف النّظر عن النّوايا المبيتة من إرادة المستعمر في توظيفه هناك، والذي يُعدّ بحق مؤامرة حبكت خيوطها إدارة المحتلّ بإحكام من أجل تكميم صوت جريدته الخاصّة "ذو الفقار"، الجريئة في طرحها، ومنهجها الثّوري الطّافح للسّطح، ومحاولة تدجينه واحتوائه على منوال تدجين رفيق دربه لاحقا، الصّحفي عمر بن قدور، ومن المتوقّع أنه خلّف أعمالا فنّية خالدة على صفحاتها لا تقلّ أهمية عما تركه على صفحات جريدته الخاصّة "الجزائر" عام (1908)م، وجريدته الثّانية

---

* جميع الصّور والأشكال الواردة في هذا المقام هي من تقديم الأستاذ الدّكتور لعرج محمود عبد العزيز، فله منّا تحية خاصة، وشكرا جزيلا على المساعدة.

1 أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، الجزء 08، ص 431؛ MARCAIS (G),**Documents Algériens**, 1946.

2 أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، الجزء 05، ص 397؛ الجزء الثّامن، ص 429.

"ذو الفقار" (1913 – 1914) (اللّوحة : 01)، اللّتان كان يحرّرهما، ويزخرفهما، ويطبعهما طبعة حجرية بنفسه.

هذا فيما يخصّ الجرائد التّي اشتغل بها الفنّان عمر راسم، أو ساهم في تنميقها وإخراجها الفنّي، حيث يبدو هناك حقل خصب من العطاء الفنّي في مجال الخطّ، والرّسومات التّعبيرية التّي لا يسع المقام للوقوف عندها كاملة. أمّا في مجال زخرفة وتنميق الكتب فلعلّ أوّل عمل للفنان في هذا المجال، هو تنميق كتاب لزميله "بلحفاف" حول حقيقة الإسلام، وذلك عام (1921)، أي في عقب الإفراج عنه من السّجن مباشرة[1]، قبل متابعاته هذا الفنّ على مدار سنوات طويلة، حيث كان من جملتها*، زخرفة ثلاثة أعمال للمناضل أحمد توفيق المدني، ألا وهي : غلاف موسوعة العلوم والجغرافيا والأدب والتّاريخ والتّراجم والسّياسة، الموسومة بـ "تقوّيم المنصور"، التّي بدأ إصدارها في تونس، حيث نُشر منها هناك أربعة مجلّدات، قبل أن تُكمل صدورها الاضطراري بالجزائر في عقب نفي مؤلّفها من هناك نحو مدينة الجزائر عام (1925)م من طرف سلطات الاحتلال الفرنسي، حيث وسعه الأمر لإضافة ثلاثة مجلّدات أخرى، بداية من المجلّد الخامس، الصّادر عام (1929)م[2].

---

1 MEDJDOUB, Op.cit, p 39, colonne 2.

* من المؤكّد أن المستشرق "پيير، وايس" (PIERRE WEISS) قد طلب من عمر راسم زخرفة أحد كتبه الأدبية الطّريفة، غير أنّنا نجهل على وجه التحديد ردّ هذا الأخير عليه، ينظر بخصوص هذه النّقطة: MEDJDOUB, Op.cit, p 39, colonne 3.

2 أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، الجزء 05، ص 296؛ الجزء الثّامن، ص 430.

وكان قوام هذه اللّوحة الزّخرفية إطار من فنّ الرّقش العربي المحوّر بداخله عنوان الموسوعة واسم مؤلّفها بخطّ مغربي جميل، يعلوه هلال ونجمة على هيئة اللّوحة (03)، إضافة إلى عبارة صارخة، تحثّ على الصّمود والثّبات في مواجهة العدوّ هذا نصّها : "العزيمة والثّبات". وزخرفة غلاف كتاب : "تاريخ شمال إفريقية أو تاريخ قرطاجنة في أربعة فصول"، الصّادر بتونس عام (1927)م[1]. وزخرفة "كتاب الجزائر"، حيث وُضع العنوان داخل إطار من الرّقش العربي دائما، وعبارة "كتاب الجزائر" منفذة بخط كوفي جميل، ضمن نظرة بانورامية ساحرة حول مدينة الجزائر، كما تبدو من صورة الجامع الجديد بمئذنته المتميّزة، مصحوبة بإطلالة تاريخية سريعة حول أيّام مجدها وعزّها في الماضي القريب، كما يستشفّ بوضوح من صورة ساحل العاصمة، حيث سفن الأسطول تذود عن حرمة الجزائر، وخفقان راية المجد والعزّ بشموخ وكبرياء على سارية إحدى تلك السّفن، التّي كان يعلوها هلال رمز الخلافة العثمانية، وبداخلها دوّنت عبارة "حبّ الوطن من الإيمان".

وتحت عنوان الكتابة الرّئيسية جاءت كتابة ثانوية هذا نصّها "تاريخ الجزائر إلى يومنا هذا وجغرافيتها الطّبيعية، والسّياسية وعناصر سكّانها ومدنها ونظاماتها وقوانينها ومجالسها وحالتها الاقتصادية والعلمية والاجتماعية، تأليف أحمد توفيق المدني"؛ وفي

---

1 أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، الجزء السّابع، ص 420.

والفضاء الفاصل بين صومعة الجامع، وراية السّفينة الآنفا الذكر، دُوّنت مرجعية هوّية المجتمع الجزائري حضاريا وثقافيا مختصرة في العبارات الآتية : "الإسلام ديننا؛ الجزائر وطننا؛ العربية لغتنا"، وما أن يمعن المرء النّظر أكثر، يلاحظ، وكأنّ نهاية الرّاية تحاول ملامسة عبارة "الجزائر وطننا"، وبذلك تكون اللّوحة ذات رمزية، ودلالة شاعرية عميقة حول رسالة وطنية خالدة[1].

علما أنّ هذه الزّخرفة قد تمّ نشرها بالأبيض والأسود في الطّبعة الأولى من الكتاب، الصّادرة عام (1931)م، وإعادة طبعها مجدّدا في الطّبعة الثّانية منه عام (1963)م.

إضافة إلى تصمّيم وتنميق رزنامة خاصّة بمواعيد الإمساك، والإفطار بمدينة الجزائر وضواحيها (اللّوحة : 04) [2]، وذلك عام (1373هـ / 1954م)، حيث قام برصد مواقيتها "باش مؤقت" الجامع الكبير بمدينة العاصمة حينها على ساعة السّاحة (ساحة الشّهداء)، قبل أن يتم طبعها من طرف إذاعة "راديو الجزائر"، وتوزّعيها مجّانا مع مجلّة "هنا الجزائر" في شكل هدية لمستمعيها.

وقوامها مستطيل رئيسي، يمتدّ رأسيا من الأعلى نحو الأسفل، يؤطره من الجانبين شريط من فنّ الرّقش العربي المحوّر، حيث يلاحظ أغصان نباتية متداخلة فيما بينها، تتعانق مع أوراق نباتية

---

1 نفسه، الجزء الثّامن، ص 430.

2 MEDJDOUB (Ali), Op.cit, p 39, colonne 2.

وأزهار متعدّدة البتلاّت في انسجام محكم. قبل أن يتجزأ ضمنيا إلى ثلاثة خراطيش فرعية غير متساوية، حيث دُوّن في الخرطوش الأوّل عبارة "هنا الجزائر" بالخط الكوفي المتّخن، والخرطوش الذي يليه نحو الأسفل تاريخ الإمساكية، وأيام الشّهر، وموعد الإمساك والإفطار بالأرقام الهندية، والأرقام العربية؛ فيما خُصّ الخرطوش الأخير، الواقع في أدنى اللّوحة لتحديد موعد صلاة العيد ومصدر إعداد تلك الإمساكية على النّحو المذكور أعلاه.

ب). تصميم اللّوحات الإشهارية

لعلّ من أبرز أعمال الرّجل الإشهارية هو : تصمّيم بطاقة مشروب "الملكية" (*LA ROYALE*) الغازي، الذي بدأ مصنع حمود بوعلام في إنتاجه وقتها، والذي حقّق أرباحا طائلة لصاحبه، والحصول على رتبة المنتوج الغازي الأكثر مبيعا لعام (1927)م بفضل تلك البطاقة الفنّية السّاحرة، التّي تركت وقعا كبيرا في نفوس المستهلكين. وفي عام (1949)م، ولذات الغرض اتصل به مجموعة من منتجي العطور بغرض زخرفة، وتصمّيم علامات تجارية خاصّة بمنتجاتهم، حيث وفّقه الحظّ مرّة ثانية لتصميم المجموعة المعروفة باسم "زواني" (*ZOUANI*)، التّي لاقت هي الأخرى رواجا هائلا في سوق العطور بفضل تقنيات تصميمها العالية، وزخرفتها الجميلة[1]. إضافة إلى إشهار جهاز استقبال أمواج إذاعة الجزائر العاصمة المعروف باسم "راديولا" (اللّوحة : 05).

---

1 MEDJDOUB (Ali), Op.cit, p 39, colonne 2.

ج). تنميق بطاقات الدّعوات الرّسمية وتبادل التّهاني

تشرّف عمر راسم في عام (1945)م بزخرفة دعوات الشّخصيات السّياسية، والدّبلوماسية، والعسكرية المدعوة لحضور مأدبة العشاء (اللّوحة : 02)، المقامة على شرف الرّئيس الفرنسي "فانسون أوريول" (*VINCENT ORIOL*) بمناسبة زيارته لبرلمان الجزائر آنذاك[1]. حيث كشف الفنّان النّابغة على قدراته الخلاقة في مجال التّصميم، ورحابة الخيال الفنّي، والمزج بين الألوان في انسجام متناغم كأنّه سنفونية موسيقية، ومنابع ثقافته الإبداعية، الغائرة بجذورها العميقة في بطون الفنّ الإسلامي المتميّز.

كما تشرّف مرّة ثانية بتخطيط وزخرفة تهنئة مجلّة "هنا الجزائر"، الموجهة لقرّائها الأوفياء بمناسبة حلول السّنة الميلادية الجديدة (1373هـ / 1954م)، جاء تنفيذ كتاباتها في شكل أقواس متطابقة بخط مغربيّ متقن، تعلوها نجمة خماسية الرّؤوس، وتاريخ السّنة بالأرقام الهندية، وعلى جانبيها خطان سميكان في هيئة منارتين متقابلتين (اللّوحة : 06).

د). المنمنمات

لا ندري على وجه التّحديد عدد المنمنمات التّي خلّفها الفنّان عمر راسم في هذا الصّدد على خلاف أسلوبه المنحاز نحو التّجريد، والخطّ، دون الصّورة الحيّة، والشّيء المؤكّد لدينا، هو قيّام الفنّان

---

1 Ibid, p 39, colonne 3.

عام (1924)م بإعداد لوحة رسم حول جامع الجزائر بطلب من جمعية المستشرقين، محفوظة اليوم بمتحف الفنون الإسلامية، والآثار القديمة بمدينة الجزائر[1]. إضافة إلى المنمنمتين (اللّوحة : 03) المنشورتين من قبل مطبعة رادوسي قدور مراد بالجزائر العاصمة، اللّتان أنجزهما عمر راسم عام (1372هـ / 1953م)، والمؤكّدتان مرّة أخرى ميول هذا الفنّان للرّقش والخط العربي بمختلف أنواعه كالمغربي، والثّلث، والكوفي، روح الفنّ الإسلامي كما هو معروف لدى أهل الاختصاص.

4). "الصّورة الفنّية" في أعمال عمر راسم الإبداعية

قد يتوهم البعض من خلال الاستعراض السّابق لمختلف المجالات الفنّية التّي مارسها عمر راسم بأنه قد مرّ في حياته الفنّية بمرحلتين متمايزتين، أولاهما مرحلة الهواية، أو الفتوة، المتسمة بـ "أسلوب الرّمزية الواقعية"، حيث اتّسمت أعمالها بالواقعية والبساطة إلى درجة السّذاجة في بعض الأحيان، كما يمكن استقراء ذلك في رسوماته عبر صفحات الجرائد (اللّوحة : 01) إلى غاية دخوله السّجن، عام (1915)م؛ ومرحلة الاحترافية، أو النضج، التّي بدأها بزخرفة أغلفة كتب غيره بداية من عام (1921)م، تاريخ الإفراج عنه من السّجن، حيث لاح أسلوب تجريدي راقٍ جدّا، مشبّع بمثل فنّ الرّقش العربي المحوّر عن الطّبيعة، الذي يغوص بالذات الإنسانية في

1 Ibid, p 39, colonne 2.

عالم المثل اللاّ منتهي عبر ثلاثيته المتميّزة (الكتابة الخطّية، والعناصر الهندسية، ونظيرتها النّباتية) المتناغمة، والمتناسقة في انسجام ساحر.

والحقيقة أنّ عمر راسم، لم يكن يبحث عن هوّيته الشّخصية في الصّورة الفنّية التّي يستنطقها خياله الفياض قبل أن تبدعها أنامله الحاذقة، وإنّما هي في نظرنا مجرّد أداة طيّعة في يديه لإبلاغ رسالة حضارية سامية، تنبع من تحت جناح شخصية ثقافية واعية برسالتها الحضارية تجاه أبناء وطنها المحتلّ، حريصة كلّ الحرص على أداء واجبها أمام ضميرها أولا، وأمام التّاريخ ثانيا، دون الاكتراث بعواقب الأمر على الرّغم من خطورة الوضع، وما كان يعترض طريق المناضلين المخلصين للقضايا الوطنية، والإنسانية العادلة من ألوان التّعذيب والإقصاء في ذلك الوقت.

مثل ما حدث لعمر راسم ذاته، الذي أُتهم بتقوّيض الشّعب والتّجسس لمصالح العدوّ من أجل زعزعة أمن واستقرار الأوضاع الدّاخلية الفرنسية كما سبقت الإشارة من قبل، وهي تهمة كانت كافية لمحاكمته، محاكمة عسكرية في منتهى القسوة، حيث أعتقل في ظروف يرثى لها، وتمّت إدانته بالإعدام، لولا شهرة كتابات ورسومات عمر راسم في الصّحف الوطنية والدّولية، التّي دفعت ببعض المنضّمات الحقوقية للتدخل، والضّغط على الإدارة الفرنسية لتخفيف الحكم، المبالغ فيه، حيث استفاد من حكم ثانٍ

يقضي بالأعمال الشّاقة مع النّفيّ إلى جزيرة كاليدونيا الجديدة (كيان)، لولا الأقدار التّي وقفت معه مرّة ثانية، حيث كان تأجّج حمية الحرب العالمية الأولى، التّي اضطرّت الدّولة الفرنسية إلى حجز جميع قطع أسطولها البحري بما فيها الأسطول المدني لنقل الأشخاص والبضائع طبعا، ووضعها رهن إشارة السّلطة العسكرية، ولم يعد بموجب ذلك سفن تنقل الأشخاص من فرنسا إلى مستعمرة كاليدونيا الجديدة.

وهو ما أدّى إلى مراجعة الحكم للمرّة الثّالثة على التّوالي، أين أُبقيت إدانة الأعمال الشّاقة، وعوّضت إدانة النّفي إلى كاليدونيا بالسّجن المؤبّد في سجن بارباروس سابقا، سركاجي حاليا، وفقدت أمّه بصرها من هول الصّدمة على الفور، ثمّ توفي جدّه، فوالده عام (1917) دون أن يراهما، أو يودّعهما، الوداع الأخير، بل الأكثر من ذلك تشدّيد عليه ظروف الاعتقال إلى أقصى حدّ، حيث أسرّ أخاه محمّد في إحدى الزّيارات له عام (1919)م قائلا : "إنّي لأعيش أحلك اللّحظات في حياتي، ولا أدري إن كان بمستطاعي الصّمود والمقاومة أكثر، ولمدّة أطول، فقد أصبح من العسير عليّ حتّى ذرف الدّموع، ولا شيء يؤنس وحدتي غير ترديد تلاوة القرآن الكريم، الذي أستمدّ منه صبري أمام هذا الخطب العصيب"[1].

1 MEDJDOUB (Ali), Op.cit, p 39, colonne1.

وهو التّصريح الذي تسرّب للصّحافة، وحرّك مشاعر النّخبة المثقفة، ووخز ضمائرها مجدّدا للضغط على الإدارة الفرنسية في سبيل إخلاء طريق مثقف كبير مسالم، حيث انتهت المعركة بالإفراج عنه عام (1921) مع تضييق عليه الخناق بالرّقابة اللّصيقة، ومنعه من الاحتكاك بالغير، والعمل في الوظائف العامةّ، حيث اضطرّ إلى فتح كشك للسجائر من أجل القوت، قبل أن تتهاطل عليه عروض زخرفة الكتب، وتصميم البطاقات الإشهارية على النّحو المفصّل أعلاه، والتّي كانت بمثابة منفذ جديد للفنان الثّائر يتسلّل منه إلى ساحة النّضال بشموخ وصمود لكن هذه المرّة ليس بحماسة واندفاع الشّباب بمشاعر صادقة أمام عدالة القضية دون تقدير العواقب، وإنّما بذهنية المجرّب المحنّك، المتقد الذهن، العارف بوحشية العدوّ وخساسته الدّنيئة، المتحدّية لكلّ الأعراف والأخلاق الإنسانية السّمحاء، التّي تعدّ في نظره مجرّد ضربا من ضروب الخيال المعشّش في أذهان من يؤمن بتلك الأفكار البالية في تقديره الخاص لا أكثر.

وعليه نجد هذا الفنان في بادئ الأمر قد وظّف فنّه للنّضال ضدّ المحتلّ والعادات البالية في مجتمعه، أو بعبارة أخرى تمرير رسالة "الإصلاح" سمة، أو "موذة" العصر في ذلك الوقت (اللّوحة : 01) بصورة مباشرة بوصفها عين الحقّ الذي كان يُحْرج، ويأرّق المستعمر للغاية؛ فجاءت أعمال تلك الفترة متّسمة بالبساطة، بساطة الجمهور الموجهة

إليه من عامة المجتمع الجزائري، لتسهل على هذا الأخير عملية استيعاب الرّسالة من غير كثير عناء.

قبل أن يوظّفها في وقت لاحق، للعمل الفنّي الخالص (المنمنمات، والإشهار، وتنميق الكتب، وغيرها) من أجل تأكّيد أصالة الثّقافة الجزائرية، وعمق جذورها الضّاربة في أعماق تاريخ الفنّ الإنساني (اللّوحات : 02 - 06)، وليس كحرفة لكسب لقمة العيش فحسب، أين كشف الفنّان في هذا المقام على قدرات خارقة، فاقت إبداعات أقرانه كعليّ بن الحاج موسى، وعمر بن سماية جودة وخصوبة.

خاتمة

وصفوة القول، فإنّ أهم ما يمكن الإشارة إليه، هو إخلاص عمر راسم لمشروعه النّهضوي الذي استهلّه بسيف عليّ، رمز الرّيشة والقلم اللّذان صخّرهما المناضل الفذ في تمرير مشروعه النّهضوي جنبا إلى جنب، فعلى الرّغم من تشتت تركيزه الفكري بين التّأليف، والبحث، والعمل الصّحفي، والتّوعية والنّصح والإرشاد، وتدبّر العيش في آن واحد، لم يصرفه عناء كلّ ذلك عن تخصيص أعماله الفنية بكلّ ما تحتاج إليه من وقت، وصبر، وعناية فائقة، ويخرجها للعيان في ثوب فنيّ ساحر، استحق من ورائها تبوأ صدارة ركب الفنانين الجزائريين المعاصرين في مجال فنّ الخط والمنمنمات عن جدارة واستحقاق.

اللّوحة (01) : الصّفحة الأولى من الأعداد الأربع

الصّادرة من أسبوعية "ذو الفقار" نقلا عن : لعرج.

اللّوحة (02) : أربع نسخ من جملة الدّعوات التّي أعدّها عمر راسم لحضور مأدبة العشاء المقامة على شرف الرّئيس الفرنسي عام (1945)م، نقلا عن : لعرج.

اللوحة (03) : منمنتان من إنجاز عمر راسم

عام (1953)م، نقلا عن "لعرج

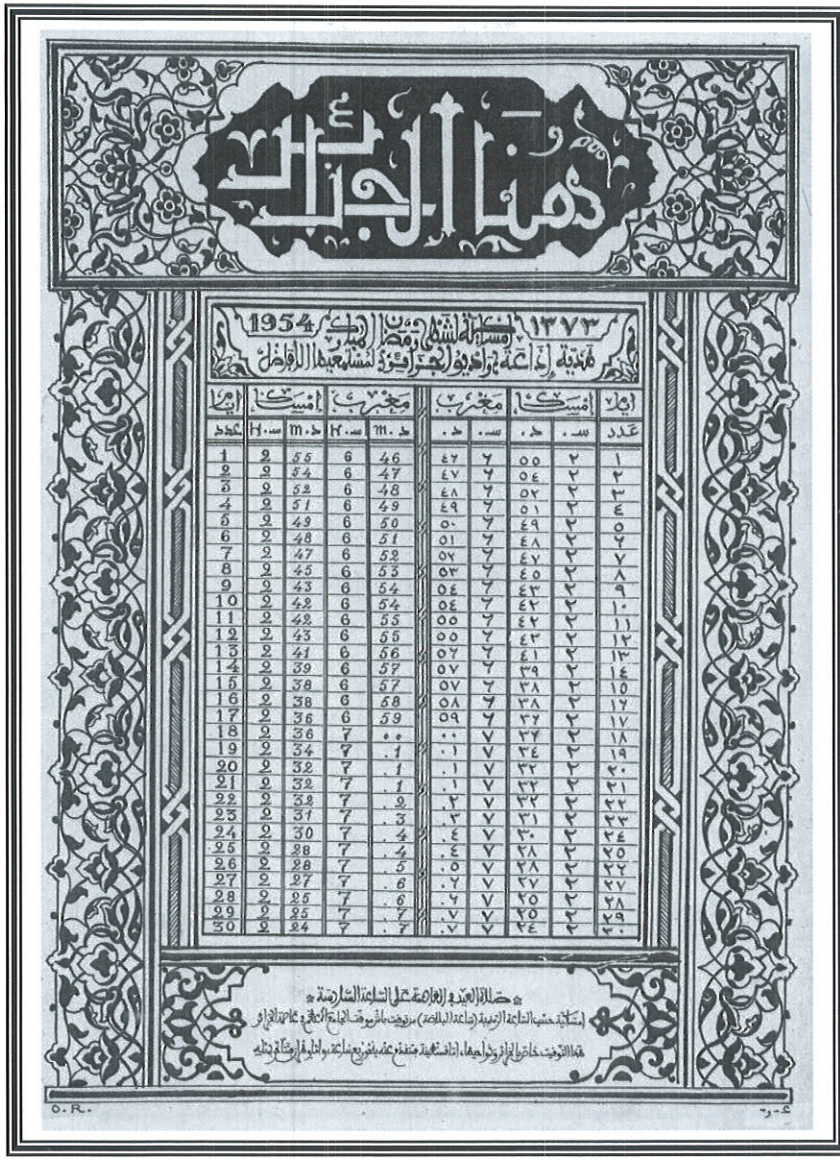

اللّوحة (04) : الإمساكية الخاصة بشهر رمضان لعام (1373هـ / 1954م)، نقلا عن : لعرج.

اللّوحة (05) : شكل اللّوحة الإشهارية التّي صمّمها عمر راسم لجهاز التقاط أمواج إذاعة الجزائر "راديولا"، نقلا عن : لعرج.

اللّوحة (06): بطاقة التّهنئة التّي خطّطها عمر راسم

باسم إذاعة الجزائر لمستمعيها بمناسبة حلول السّنة الميلادية الجديدة **(1954)**م، نقلا عن: لعرج.